الشاعر والسلطة
قراءة في شعر صعاليك العصر الجاهلي

علاوة ناصري
جامعة نبسة

" ألعن الدولة التي تحول أبناءها إلى عبيد " نيتشة

" إذا ما جعت آكل لحم مغتصبي " محمود درويش

ملخص:

لم يتردد الشعراء الصعاليك في مغادرة قبائلهم بعد الإحساس بالإهانة، فاتخذوا الصحراء ملاذا لهم رغم مخاطرها، فانتظموا وتأقلموا مع نمط الحياة الجديدة، وظلوا متمسكين منتصرين لهويتهم الأصل في قالب شعري جديد من خلال أسلوب خشن وصلب، مخالف لما هو مألوف، ومضمون يفيض ويتغنى بالقيم النبيلة للإنسانية.

Summury :

After feeling humuliated by their tribes, the saaliks poets decided to take the desert as refuge despite the risks.

Then they had been organized and adapted with their new life, but the most important is their poetry that signs their identity, through rough style, contrary to the familiar and a rich content of human values.

الكلمات المفتاحية:

الشعراء الصعاليك، القبيلة، القيم النبيلة، الثورة.

The keys words : the saaliks poets, their tribes, human values, the revolution.

تقديم:

انبنت حياة عرب الجاهلية على كثير من أسس الاجتماع والتوافق الخادمة لمصالح القبيلة التي هي إطار سياسي، واجتماعي، له مكوناته المادية والمعنوية، التي تقوي الشعور بالانتماء بين أبناء القبيلة الواحدة.

كانت وحدة الدم السبب الأول الذي أفرز نظاما طبقيا يسري في كامل الجزيرة العربية، فوجد فيها الأبناء الأصلاء، والحلفاء ومن استجاروا بها، والموالي والعبيد.

ومن هنا، كان للفرد في القبيلة العربية قيمته، تنصره ظالما او مظلوما، وقد أكد ذلك دريد ابن الصمة (من الطويل):

ومَا أنَا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غوَتْ غوَيْتُ وإنْ تَرشُدْ غزِيَّةُ أَرْشُدِ [1]

وحسبه أن يستغيث، فإذا السيوف مشرعة، وإذا الدماء تتصبب لأتفه الأسباب [2]

وجاء الشعر الجاهلي تأكيدا لفكرة التماسك بين أبناء القبيلة، وتوثيقا لما هو كائن. يقول الأفوه الاودي (من البسيط):

البيتُ لا يُبْتَنَى إلا لهُ عَمَدٌ ولا عِمادَ إذا لمْ تُرْسَ أَوْتادُ

فإنْ تجمعَ أَوتادٌ وأَعمدَةٌ وساكنُ بلغوا الأمرَ الذي كادوا

لا يَصْلُحُ الناسُ فَوضَى لا سَراةَ لَهُمْ ولا سَراةَ إذا جُهالُهُمْ سادُوا

تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ فَإِنْ تَوَلّتْ فَبِالأَشْـــرَارِ تَنْقَادُ [3]

ومن هنا، كان سؤدد القبيلة وفخارها وصلاحها بما يكون عليه حال أبنائها من انسجام وتلاحم وتضامن زمن الحرب والسلم، يعطون القبيلة حقها وحقيقتها، مدعومين بعصبية لا تتسامح في أي واجب من واجبات الفرد إزاء ما يطلب منه.

كان لابد لهذا البناء أن يتصدع بفعل ما تسميه القبيلة " تجاوزا غير مقبول، وخروجا عن أنظمة تسيء إلى سمعة القبيلة "، فتستحق بذلك العقوبة المناسبة يمليها سيد القبيلة وقد اتصف بـ: الحلم والأدب والمال والعلم!.

كان هذا الخروج عن الطاعة سببا في قلق الشاعر وألمه واستيائه، وكم اشتكى طرفة بن العبد من ذوي القربى، وتذمر عنترة بن شداد من الإهانات التي لحقته، ولحقت امه، وقد عيرهما الناس سواد لونهما، ووضاعة أصلهما، لذا كانت " قضية عنترة الأساسية هي تحقيق الانتماء، والالتحاق بمجتمع الأحرار، وإجبار السادة على الاعتراف به، والتغاضي عن هجنة لحقته من ناحيته أمه .. وشعر عنترة يدور في إطار هذه القضية يبدأ منها، وينتهي إليها، ولا يفتأ يقدم لعالم السادة الدليل تلو الدليل على أنه أحق بالانتماء من كثير ممن أفسح لهم مجالسهم، ومنحهم شاراته، كان الواقع الانساني، والمصير الانساني مظهرين من مظاهر الصراع على هذه الأرض ذات الطول والعرض "[4]

لقد رضيت هذه الأرض بصحرائها وشمسها الحارة ان تكون رحيمة بكثير من أبناء القبيلة الذين وجدوا جفوة منها، ويؤكد الشنفرى ذلك:

وَفي الأَرضِ مَنأى لِلكَريمِ عَنِ الأَذى وَفيها لِمَن خافَ القِلى مُتَعَزَّلُ

لَعَمرُكَ ما في الأَرضِ ضيقٌ عَلى اِمرئٍ سَرى راغِباً أَو راهِباً وَهوَ يَعقِلُ[5]

بدايات التأسيس لحياة جديدة وشعر مخالف:

في ظل غياب التناسق والانسجام بين بعض أفراد القبيلة والنظام الذي يتحكم فيهم بسبب ما يبدر من الفرد / الشاعر من موقف أو سلوك أو ردة فعل على اعتداء على شخصيته يكون ماديا او معنويا، يبدأ الشقاق / الانشقاق بين أبرز مكونات القبيلة، خاصة وقد علمنا " أن الحياة مليئة بالصراع الخفي والمعلن، والحاد والأقل حدة بين الأفراد والطبقات والمؤسسات [..] ويتضمن الصراع وجود خلافات لا يمكن حسمها إلا بالانتصار على مختلف أنواع الحيف الذي يمارس على جلود هانت وخدود بهتت ... فالضرب كان احدى الوسائل التي تجعل الأفراد يفرون بجلودهم إلى حيث يشعرون بالكرامة "

ولطالما فجرت هذه الأساليب الحقيرة التي مارسها السادة البيض، والتفاوت في المعيشة بين الناس حروبا وثورات سماها البعض " ثورة الجياع " يقودها الفقراء خاصة، وقد أعلنها الشعراء صراحة فيما أبدعوا، وكشفوا عن رغبة حقيقية في التحرر والانعتاق من تقاليد القبيلة، وكانت أشعارهم ورماحهم وسيوفهم مصدر إزعاج وقلق للتجار وأرباب المال، وقوافلهم التي تمخر رمال الصحاري وشعابها.

وقد وجد الصعاليك في الصحراء الواسعة التي لا يمتد إليها سلطان القبيلة، خير موطن لتشييد صروح سلطانهم، وإقامة قلاعهم وحصونهم التي كانوا ينطلقون منها أسرابا في مختلف الجهات يسلبون وينهبون ثم يفرون عائدين إلى حصونهم آمنين. (6)

كان لزاما على الشعراء الصعاليك، وقد أذلهم نسبهم من جهة امهاتهم، والجوع الذي حولهم أشباحا، إلى أن يشكلوا إطارا جديدا، يجمعهم ولا يفرقهم، حيث تقاربت مستوياتهم الفردية، ووسائلهم في جمع المال، وكان لهم منهج يقوم على رفض القعود وانتظار عطف الأغنياء، وكانوا لا يقبلون صعلوكا بليدا كسولا. ذلك ما أشار إليه عروة بن الورد سيد الصعاليك (توفي 30 ق هـ- 594 م)، وقد كان أبوه ورد بن حابس يؤثر أخاه الأكبر (من الطويل):

لحى اللهُ صُعلُوكًا إذَا جنَّ ليلُهُ مُصَافي المُشَاشِ آلفًا كُلَّ مَجزَرِ
يعُدُّ الغِنَى مِنْ دهرِهِ كُلَّ ليلَةٍ أصابَ قِراهَا مِنْ صدِيقٍ مُيسَّرِ
قَليلَ التماسِ المالِ إلَّا لِنفسِهِ إذَا هوَ أضحى كالعريش المُجوَّر
ينَامُ عِشاءً ثمَّ يُصبِحُ قاعِدًا يحُتُّ الحَصَى عَنْ جنبِهِ المُتَعفِّرِ
يُعينُ نساءَ الحيِّ مَا يستعِنَّهُ فيُضْحِي طليحًا كالبعيرِ المُحَسَّر

كان الفضل الذي أحرزه سيد الصعاليك على بعض أشباه الصعاليك انه لا ينفك ساعيا إلى جمع المال لينفقه على الفقراء امثاله. لذا كان يلعن كل صعلوك (فقير هنا) خامل، ضعيف النفس، لا يجرؤ على القتال، ويفضل أن يكون طعامه عظاما يلقطها من اماكن الجزارة، ويفضل القعود جهة النساء يأمرنه فيستجيب لهن لينظف الحي ... وهي صورة قبيحة يسوقها عروة بن الورد لجماعة من الصعاليك لا تدخل في حسابه وقت الغزو والإغراء.

لقد انتظمت حياة الصعاليك في هذه المنافي والفيافي التي ليس فيها هاد ولا دليل ولا سند، كل ما فيها ينزع الأمان من النفس، ويذعر ويروع، فتحدق نذر الخطر على الشاعر(7) الذي يعيش توترا دائما، وكان عليه ان يعيش عالمه الجديد الذي قذف إليه ليجد أمامه وحوشا ضارية تآلف معها، وكان ذلك " اقتلاعا عنيفا للإنسان من عالم الإنس" (8).

الصعاليك وإنجاز التحدي والمقاطعة:

وشعر الصعاليك ليس شعر استسلام، أو بكاء لما فعلته القبيلة، أو صورة لبعض الشعر الذي يسود الجزيرة وفيه بكى أصحابه المكان والأصحاب، بل هو تحد وتجاوز لكل ما من شأنه إعاقة حركة الذات نحو خلق النماذج والأشكال والأصوات والذوات في بعدها الرمزي العميق، سندها في ذلك الزمن الحاضر المنفتح على أزمته آلية تمهد لها بآليات الانتباه كافة آليات التلقي ومشاركة الذات رحلة استعادة القوة والحياة.

وقد سلك هؤلاء الشعراء أسلوب المواجهة والتحدي من خلال إيجاد عالم بديل، وبوسائل مختلفة لم تكن قائمة من قبل، منها ما قال الشنفرى (من الطويل):

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيلُ

فَقَد حُمِّت الحاجاتُ واللَيــلُ مُقمِــرٌ وَشُدَّت لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرحُـــلُ
وَفي الأَرضِ مَنأى لِلكَريمِ عَــنِ الأَذى وَفيها لِمَن خافَ القِلــى مُتَعَزَّلُ
لَعَمرُكَ ما في الأَرضِ ضيقٌ عَلى اِمرئٍ سَرى راغِباً أَو راهِباً وَهــوَ يَعقِلُ
وَلي دونَكُم أَهلَونَ سيــدٌ عَمَلَّــسٌ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفــاءُ جَيأَلُ
هُمُ الرَهطُ لا مُستَودَعُ السِــرِّ ذائِعٌ لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ[9]

أصبح الشاعر في هذه الفيافي صديقا للذئب، والضبع، وسما بها إلى درجة الأهل والرهط، ناقدا سلوك البشر، مدينا ما يصدر عنهم من إذاعة الأسرار واتهام الجناة بما يأتونه من جرم.

كان شعر الصعاليك أحد الوجوه المبكرة في مقاومة الفرد/ الشاعر لتعالي السيد الذي نصبه الناس رئيسا للقبيلة، وقد كان من واجباته ان يعفو عن سفيههم، ويحلم عن جاهلهم، ويسعى في حوائجهم، ويعطي سائلهم. [10] وفي كتاب الأغاني ما يؤكد سياسة العفو عند رؤساء القبائل. فعن سلم بن نوفل سيد بني كنانة، حين مثل أمامه قاتل ابنه وابن اخيه فقال له: ما امنك من انتقامي؟ قال: سودناك إذا إلا ان تكظم الغيظ، وتحلم عن الجاهل، وتحمل المكروه، فخلى سبيله [11]

إذا، كيف نفسر العدد الكبير من الشعراء الصعاليك الذين خرجوا عن القبيلة؟ يرى د.وهب أحمد رومية ان في شعر الصعاليك عامة مقادير متفاوتة لا تخفى من مرارة لاذعة، وحسرة مستمرة ودعاوى عريضة [12]، وأن ذواتهم مفعمة بالثقة، فإذا ما انقطعت الأسباب بينها وبين بعض الناس ، لم تجزع لذلك، ولم تحزن، ولم تهتم، " فالناس أخياف.. شراة وخساس"، وهي لا تبكي إلا على الماجد الفذ من الرجال[13].

وانطلاقا من هذا الفرز بين الرجال، رأى الصعاليك ان يرموا أنفسهم في المهالك ويعرضوها لألوان التحديات، دون خوف من الموت، وإن دفع الفقر والحصول على المال لا يكون إلا بالإغارات على قوافل التجار، يستبيحونها، وقد عرفوا طريقها، فأخذوا منها ما يكفيهم، وكان هدفهم الآخر نقل الخوف والفزع إلى الجهة الاخرى، وهي – عادة – الخصم اللدود الذي مارس عليهم ضغوطا حين أخذت تخلعهم أمام الناس، إما لكثرة جناياتهم، أو سوء سلوكهم الاجتماعي والاخلاقي.

وأمام هذا الوضع المهين وجد الصعاليك أمامهم الصحراء بمختلف وحوشها، ومناخها، وتضاريسها مكانا يناسب توجههم الجديد القائم على التحدي والمواجهة للحصول على الطعام.

تبقى انجازات الصعاليك شاهدا على التحول الذي طرأ في العلاقات بين الأفراد على المستوى الرسمي.. فالقبيلة –على صرامة نظامها- قد تتزعزع أركانها، فتصبح هدفا يرمى - فعلا وقولا- لأنها ألحقت العار ببعض أبنائها، وأذلتهم أمام وفود القبائل يسمعون نبأ الخلع والنفي بعيدا عن القبيلة.

لا شك أن الانجاز الأدبي / الشعري لهؤلاء الشعراء يؤكد قيمة الأدب الذي هو "احتجاج واقتراح.. فهو تحريض من الدرجة القصوى للقارئ.. تحريض على رفض الواقع، وتحريض على اعتناق الاقتراح بواقع مغاير يوفر مستقبلا أفضل "[14]

كانت روح الجماعة تهيمن على هؤلاء الصعاليك، وهم كاليد الوحدة إذا غزوا. يقول عروة (من الطويل):

سَيُفْزِعُ بَعْــدَ الْيَأْسِ مَــنْ لاَ يَخافُنَا كَوَاسِعُ فِي أُخْرَى السَّوَامِ المُنفّرِ

سَيُفْزِعُ بَعْـدَ الْيَـأْسِ مَنْ لاَ يَخافُنَا وَبِيضٍ خِفَافٍ وَقْعُهُنَّ مُشَهـّرُ
وَيَوْمًا عَلَى غَـارَاتِ نَجْدٍ وأَهْلِـــه ويَومًا بِأَرْضٍ ذَاتِ شَثٍّ وَعَرْعَرِ
يُنَاقِلنَ بالشُّمْطِ الكِـرَامِ أُولِي النُّهَى نِقَابَ الحِجَازِ فِي السَّرِيحِ المُسَيَّرِ
يُرِيحُ عَلَـــيَّ اللَّيْلُ أَضْيَافَ مَاجِـدٍ كَرِيمٍ ومَالِي سَـارِحًا مَالُ مُقْتِرِ[15]

كانت معرفة الصعاليك بكل أحوال الجزيرة سببا في تحقيق أهدافهم عن طريق النهب وقطع الطريق ففي مكة مثلا نشطت التجارة بصورة كبيرة، ونشأ فيها مجموعة من التجار والمـرابين الـذين يملكـون رأس المـال الكبير..وعليه فجميع الطرق التي يسلكها التجار تحت مراقبة الصعاليك وكانت خطـتهم ان ينطلقـوا مـن المناطق الفقيرة الجدباء إلى المناطق الغنية الخصبة. يقول تأبط شرا (توفي 540م) (من الطويل):

وَيَوماً عَلى أَهلِ المَواشـــي وَتارَةً لِأَهلِ رَكيـــبٍ مِن ثَميلٍ وَسُنبُلِ
إِذا فَزَّعوا أُمَّ الصَبِيِّينِ نَفَّضـــوا عَفارِيَ شُعثاً صـافَةً لَم تُرَجَّـلِ
فَيَوماً بِغُزّاءٍ وَيَومـــاً بِسُرَيَـــةٍ وَيَوماً بِخَشخاشٍ مِنَ الرَجلِ هَيضَلِ [16]

صناعة القيم:

انبنى كثير من شعر الصعاليك على القيم المعروفة وقتها، وقد مارسها بعضهم حين كان جزءا مـن القبيلـة، فعروة بن الورد مثلا كريم النفس، طلق اليدين، باسطها، يؤثر غيره ولو كان به خصاصة. قال (من الطويل):

وإني امرؤٌ عافي إنائـــي شركة(*) وأنتَ امـرؤٌ عـافي إنائُكَ واحدُ
أتهزأُ مني أن سَمِنْتَ وأن تـــرى بوجهي شُحُوبَ الحقّ والحقٌ جاهدُ
أقَسِّـــمُ جسمي في جُسُوم كثيرة وأحْسُـو قِـرَاحَ الماءَ والماءُ باردُ[17]

وعروة في هذه القصيدة يقر أهمية تقاسم الطعام والاشتراك فيه، وهو من بـاب التضـامن والتعـاون بـين الصعاليك الفقراء. وكان شغله الشاغل ان يجمع مالا ثم يوزعه، وكانت نفسه لا تعرف أنانية ولا خوفا. يقول (من الطويل):

دعيني أطوف في البـــلاد لعلني أفيد غنى فيـه لذي الحق محمـل
أليس عظيـما أن تلم ملمـــة وليس علينـا في الحقوق معـول
فإن نحن لم نملك دفاعا بحـــادث تلم به الأيـام فالمـوت أجمـل [18]

فالكرامة الإنسانية هدف عمل لأجله الصعاليك، فالسواد لم يكن مانعا من ان يكون المرء ذا قيمـة، يحترمـه الآخرون، إلا أن يكون لئيما.

ولو ان هذه المجتمعات راعت مبدأ الاحتفاظ بالاعتبار البشري والكرامة الانسانية لكل المجموعات، ما وقـع أولا: اعتداء مجموعة على أخرى في حقوقها، وثانيا: تقصير مجموعة في واجباتها نحو الأخرى [19]

كما كان الصبر على الجوع إحدى صفات هؤلاء الصعاليك الذين غالبوه بالطرق المختلفـة، خاصـة وهـم يستعدون ليل نهار للحصول على مغانم من القوافل التجارية العابرة للجزيرة العربية، يسـاعدهم فـي ذلـك قدرتهم على العدو، والاختفاء في أعالي الجبال، هروبا من ملاحقات القبائل، وقد أحست خطـر الصـعاليك، فجاء شعرهم يمثل أحاسيسهم، ويترجم عن نفسياتهم، ويعرب عن عواطفهم ونزعاتهم.

وبالمناسبة، فقد جاءت لامية العرب شاهدا على هذه القيم، وقد علم الشنفرى أنهم جماعة لا تلقى من الناس أي إحسان أو عاطفة وقد عيروا بمختلف أساليب القبح.

لذا كان الضرب في الأرض عاملا للحصول على الطعام الذي يعطى للفقراء، وكان حظ الشنفرى الذي قال (من الطويل):

أُديمُ مِطَالَ الجُوعِ حتّى أُمِيتَه وأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فأُذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يُرَى لَهُ يُعَاشُ بِه إلاّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
ولولا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِه إلاّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
أغْدو خَمِيصَ البَطْنِ لا يَسْتَفِزُّني إلى الزَادِ حِرْصٌ أو فُؤادٌ مُوَكَّلُ [20]

والشنفرى -هنا- قريب من قول عنترة العبسي الذي لم يكن من الصعاليك رغم سواد لونه ووضاعة نسبه، وقد قال (من الكامل):

ولقد أبيتُ على الطّوى وأظلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ [21]

وشعر الصعاليك عموما يؤدي إلى تعرية القبيلة، وكشف زيف إدعائها بحماية الفرد وتأمين حقوقه وحمايته [..] كما يكشف عن مدى ظلم القبيلة للأفراد وسلبهم لحقوقهم الايجابية.. وعدم مفعولية القبيلة واستطاعة العيش بحرية وكرامة. [22]

ومن جهة أخرى، فلا صبر للصعاليك الذين يلحقهم أذى القبيلة المادي والمعنوي، خاصة إذا علمنا الخدمات التي يقدمونها للسادة رؤساء القبائل الذين يعمدون التهميش والرفض أساليب في تعاملهم مع الصعاليك.

كان ذلك جانبا من التضحية بالنفس يمارسها الصعاليك أمام الناس، ويؤدونها اخلاصا لضمائرهم، لا طمعا في ربح ينالونه. فأمام إدخال السرور على النفس أحد اهداف هؤلاء الصعاليك، وكما هو معلوم فإنما مثلنا الاعلى ان نصل إلى الرقي إلى حد ان نتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلينا. [23]

وجاء هذا الإحساس باللذة بعد ان غادر الصعاليك قبائلهم مطرودين، مخلوعين وقد خلعوا عن ظهورهم الذل والعار، وهما امران لا يمكن الصبر عليهما إلا بإراقة الدماء، وإعلان الحرب على سادة القبائل، او طردهم إلى الأبد. ذلك ما قاله الشنفرى مع جماعته، وقد أحسوا بالجوع والعطش، (من الطويل):

دَعيني وَقولي بَعدُ ما شِئتِ إِنّني سَيُغدَى بِنَعشي مَرَّةً فَأُغَيَّبُ
خَرَجنا فَلَم نَعهد وَقَلّت وَصاتُنا ثَمانِيَةً ما بَعَدها مُتَعَتَّبُ
سَراحينُ فِتيانٍ كَأَنَّ وُجوهَهُم مَصابيحُ أَو لَونٌ مِنَ الماءِ مُذهَبُ
نَمُرُّ بِرَهوِ الماءِ صَفحاً وَقَد طَوَت ثَمائِلُنا وَالزادُ ظَنٌّ مُغَيَّبُ[24]

كانت الشجاعة أساس تلك المغامرات التي خاضها الصعاليك وسط الفيافي ليلا ونهارا هدفهم " اقتناص الأسلاب واقتسامها، والهزء بالصلات القبلية، والدعوة إلى تضامن الصعاليك على ما بينهم من اختلاف في الأنساب". [25]

كان هؤلاء الصعاليك النماذج العربية الأولى الذين ضحوا بأنفسهم، وصبروا على الآلام عشقا للحق وهياما به، واستعذبوا طعم الرزايا تنزل بهم لانهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم. [26]

كانت شجاعتهم إحدى الفضائل التي يقاس بها الرجال، بعيدا كل البعد عن الجبن الذي هو رذيلة تلصق بالفرد فيغدو مثلا للرجل الذي موته أفضل من حياته.

كما كان اتفاقهم وتوافقهم على « مواجهة المواقف الكثيرة الصعبة التي يتعرض لها الصعلوك، والتي تجعل منه شخصا غير متردد في المواقف التي يفسدها التردد وضعف العزيمة علامة أخرى تقوي شخصياتهم التي تستهين بالموت الذي يترصدهم في كل مكان ينزلون به، وعليه فقد كان شعر هؤلاء الصعاليك ذريعة لجلاء صفة من الصفات التي يريدون تحقيقها، ووسيلة إلى نقد عمل او سلوك لم يعجبهم»[27]

قال عروة بن الورد (من الطويل):

صَبوراً عَلى رُزءِ المَوالي وَحافِظاً لِعِرضِيَ حَتّى يُؤكَلَ النَبتُ أَخضَرا

وقال الشنفرى (من الطويل):

فإنّي لَمَولَى الصَّبْرِ أجتابُ بَزَّهُ على مِثْلِ قَلْبِ السِّمْعِ والحَزْمَ أفْعَلُ
وأُعْدِمُ أَحْيَاناً وأَغْنَى وإنَّما يَنَالُ الغِنَى ذو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ
فلا جَزِعٌ مِنْ خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٌ ولا مَرِحٌ تَحْتَ الغِنَى أتَخَيَّلُ
ولا تَزْدَهِي الأجْهالُ حِلْمِي ولا أُرَى سَؤُولاً بأعْقَاب الأقَاوِيلِ أُنْمِلُ [28]

فالصبر عند هؤلاء الصعاليك صفة افتخروا بها أمام سادة القبائل، وهي حلية تزينهم في وقت إذا عض الجوع آخرين، اهلكهم وأصبحوا هزؤا، تلوكهم الألسنة في شعر ما زال شاهدا على الروح المتمردة والنفس الكبيرة التي تكره الظلم.

لقد استطاع هؤلاء الشعراء الصعاليك ان ينقلوا إلينا تجاربهم الحقيقية فوصفوا انفسهم بين الحرية والعبودية، والظلم والعدل، والحياة والموت، والشقاء والنعيم، والشجاعة والجبن، والإقدام والاحجام، والقبح والجمال، والجود والبخل، والكرم واللؤم، والخير والشر، والتمرد والاستسلام، وهي صفات طبيعية في الانسان، لكنها في ظروف معينة تصبح أكثر التصاقا بصاحبها ويصبح بها أشهر من علم.

ويرى إيليا الحاوي ان لامية العرب للشنفرى أنها من اوائل القصائد الجاهلية [..] وأنها صدرت عن دربة نفسية وفنية عميقة وتجربة قضية متعمقة بذاتها، وفيهما تعارض الداخل والخارج، والفرد والمجموع، والوحشة والألفة، والحضارة والبداوة، والإنسان والطبيعة، والخير والشر [..] والموت هو الذي يصحب الشاعر حيث يقيم وحيث ينام. [29]

ولما كان الصعاليك في العصر الجاهلي " في الصفوة المجيدة الممتازة " كالشنفرى وابن الورد وتأبط شرا والهذليين، كان شعرهم من مدعمات إكبار المجتمع لهم، من ذلك ما دار بين الحطيئة – وهو شاعر مخضرم – وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أقر بمكانة شعر عروة بن الورد سيد الصعاليك، كما جاء اعتراف معاوية بن أبي سفيان مكملا لكلام عمر حين قال: « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم »، ولم يفت عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي وهو احد الخلفاء المشاركين في حلقات الأدب والنقد الذي قال: « ما يسرني ان احدا من العرب لم يلدني ولدني إلا عروة بن الورد» لقوله:

وإني امرؤٌ عافي إنائي شركة وأنتَ امرؤٌ عافي إنائكَ واحدُ
أتهزأُ مني أن سَمِنْتَ وأن ترى بوجهي شُحُوبَ الحقّ والحقُّ جاهدُ

أقَسِمُ جسمي في جُسُـوم كثيـــرة وأحْسُو قِرَاحَ الماءَ والمـــاءُ باردُ [30]

وحظي شعر الصعاليك بإهتمام النقاد قديما وحديثا، فنظروا في طبقاتهم، وأساليبهم التي كانت تنأى عن أساليب الشعراء الرسميين، فلم يهتموا بما إهتم به زهير والنابغة، فجاءت لامية العرب خالية من التصريع، والمقدمات الطللية والغزلية، وفي أسلوبها خشونة هي من أثر البيئة التي عاشها الصعاليك.

ويكفينا ما وصلنا من شعر هؤلاء الذي يبقى علامة دالة على تصرفات هؤلاء الذين رفضوا حياة الذل التي مارسها الاغنياء على الفقراء. وكان شعرهم في كثير منه دعوة إلى الاجتهاد في نيل الغنى، والوصول إلى الحد المعين حتى لو أدى هذا الطريق إلى الموت(*) الذي يصبح مريحا يهيئ العذر لمثل هذه الميتة. [31]

والشعراء الصعاليك لم يرسموا لنا صورة مفصلة متكاملة لعالم أفضل، بل كان عالمهم رفضا لواقع قائم فهجروه، وحاربوه قولا وفعلا، فجاء شعرهم أداة توجيه وتبصير لعواقب الخيارات السياسية. [32]

وتبقى الصعلكة في الجاهلية – وفي غيرها من العصور- ملحمة شعرية تحكي قصة الانسان مع النظام، والناس أجمعين، ونظام الكون، وبأسلوب يطلبه عصر دون آخر.

ذلك ما يراه د/ مصطفى ناصف حين قال: « فلم يكن الصعلوك شاعرا فقيرا ثائرا على الغنى والاغنياء فحسب، بل كان – أيضا – ثائرا على الحياة في جملتها، مستهترا ومفتونا بها في الوقت نفسه كما يحاول كل إنسان بطريقته الخاصة: للفارس طريقته، وللكريم طريقته، وللصعلوك طريقته...» [33] كان كل ذلك لحظة تاريخية هامة في حركة الشعر العربي الذي أرخ لمرحلة التحول الحاصل في علاقات الأفراد بمؤسسة القبيلة، ولبداية تشكل خطاب مميز في لغته ومضمونه رأى فيه النقاد ثورة وتمردا على كل ما كان.

خاتمة

وأخيرا، فكما عمق الصعاليك الفجوة – باحداثهم الجفوة- بين القبيلة وأبنائها المنتسبين إليها، فقد عمق الفجوة بين الشعر الذي تأسس لنصرة القبيلة، والشعر الذي تأسس بعيدا في الفيافي، وفي المراقب التي تبقى عصية على سادة القبائل الذين أتهموا بقصر النظر، وضيق الصدر في كل تعامل مع أبناء القبيلة التي رمتهم إلى تلك الأماكن الوعرة التي يرتادها الوحوش.

كان الشعراء الصعاليك مقتنعين بأن شعرهم رسالة إحتجاج، ووصف صريح لحياة البأس التي رفضوها اولا ثم ألفوها وأصبحت لهم منهجا ينطلق من الهامش ليخلخل المركز.

وقد تجسد من وراء كل ذلك الثنائيات الضدية بين الأنا والآخر، والحرية والعبودية، والخير والشر، والقبح والجمال، والظلم والعدل، والحياة والموت، والنعيم والشقاء، والشجاعة والجبن، وبأسلوب يقوم في بعضه على المثل والحكمة التي تبقى صالحة.

المصادر والمراجع

(1) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط7، دت، ص 61.

2)حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، دط،دت، ص 32.(3)

2)حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، دط،دت، ص 2.32)

حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، دط،دت، ص 32.(3)

(4) هاني نعمة حمزة: شعر المهمشين في عصر ما قبل الإسلام (دراسة على وفق الأنساق الثقافية)، منشورات ضفاف، بيروت

(5) عصام عبد الفتاح: الأعمال الكاملة لشعراء العصر الجاهلي، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، دط، دت، ص 871.

(7) عصام عبد الفتاح: ص 989.

(8) أحمد وهب رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد (عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والأدب)، الكويت

(9) عصام عبد الفتاح: ص 989.

(10) حسين عطوان: ص 33.

(11) حسين عطوان: ص 33.

(12) أحمد وهب رومية: ص 257.

(13) أحمد وهب رومية: ص 257.

(14) محي الدين صبحي: شعر الحقيقة (دراسة في نتاج معين بسيسو)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1981، ص15.

(15) عصام عبد الفتاح: صص 989-990.

(16) حسن جعفر نورالدين: موسوعة الشعراء الصعاليك، ج1، رشاد برس، بيروت، دط، 2008، ص60.

(17) عصام عبد الفتاح: ص 987.

(18) عصام عبد الفتاح: ص 988.

(19) محمد البهي: الكرامة الإنسانية، مجلة الدوحة (مجلة شهرية ثقافية جامعة)، وزارة الإعلام، قطر، ع 95، نوفمبر 1983

(20) عصام عبد الفتاح: ص873.

(21) غازي طليمات، عرفان الأشقر: الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2002،

(22) محي الدين صبحي: ص 15.

(23) محي الدين صبحي: ص 15.

(24) ديوان الشنفرى، دار صابر للنشر، بيروت، دط، دت، ص50.

(25) أحمد امين: كتاب الاخلاق، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، 1969، ص 182.

(26) نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، دط، 1964، صص بتصرف.

(27) نوري حمودي القيسي: ص 318.

عصام عبد الفتاح: ص 871. (28)

إيليا الحاوي: في النقد الأدبي (مقدمات جمالية عامة وقصائد محللة من العصر الجاهلي)، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (29) ط5، 1986، ص 383.

عصام عبد الفتاح: ص 987. (30)

الموت.. موضوع يستحق الإهتمام في شعر الصعاليك. (*)

نوري حمودي القيسي: ص316. (31)

محي الدين صبحي: (المقدمة). (32)

مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربي، دار الأندلس بيروت، ط2، 1981، ص 295. (33)